مجلة العلوم الإنسانية —— عدد 48 ديسمبر 2017،المجلد أ، ص. ص 219-230 ——

المفارقات الزمنية في "ثلاثية الجزائر" لعبد الملك مرتاض

برقلاح إيمان
قسم اللغة العربية
جامعة الإخوة منتوري
قسنطينة

ملخص:
مثلت "ثلاثية الجزائر" لعبد الملك مرتاض منعطفا روائيا جديدا، حيث واكبت ما عرفته الرواية التجريبية من تجاوز للزمن الخطي ، وتداخلها بين عدة أزمنة فكان لها أن وظفت المفارقات الزمنية من استرجاع و استباق، فكانت المفارقة الأولى بالرجوع إلى الماضي السحيق، و حملنا إلى ما كابده أجدادنا الأوَل من ظلم و بطش و تقتيل إبان الاحتلالين الإسباني و الفرنسي، أما المفارقة الثانية فمثلت تنبؤات تحققت فيما بعد، و بعثا لعجلة السرد إلى الأمام . كل هذا سنفصل فيه الحديث في هذا المقال.

الكلمات المفتاحية :
الرواية؛ ثلاثية الجزائر؛ المفارقات الزمنية؛ الاسترجاع؛ الاستباق.

Résumé:
La trilogie d'Algérie d'Abd l Malek Mortadh a représenté une nouvelle tournure romancière .tout comme le roman expérimental, elle a utilisé le dépassement du temps linéaire et le chevauchement entre plusieurs temps. Elle a employé des anachronies temporelles tels que l'analepse et le prolepse.
Le premier paradoxe était le retour au passé lointain afin de nous relater l'injustice, la souffrance et le meurtre de nos ancêtres, pendant l'occupation espagnole et française. Cependant le deuxième paradoxe a représenté des prévisions qui se sont réalisées plus tard et de pousser la narration vers l'avant. Nous allons traiter et détailler tous ces éléments dans notre article.

Les mots clés :
le roman ; La trilogie d'Algérie, anachronies temporelles ; l'analepse ; le prolepse.

مقدّمة:

إنّ تقديم الأحداث و تأخيرها تقنية من التقنيات المتداولة بكثرة في الرواية المعاصرة فـ"استحالة التوازي بين زمن الخطاب ، أحادي البعد ، و زمن التخيل المتعدد الأبعاد أدى إلى خلط زمني يحدث مفارقات زمنية على خط السرد "[1]، فمنذ كتابة أوّل كلمة يكون كلّ شيء قد انقضى و يعلم القاص نهاية القصة، فالراوي يحكي أحداثا قد انقضت، و لكن بالرغم من هذا الانقضاء فإنّ الماضي يمثل الحاضر الروائي.

© جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، الجزائر2017

و" الرواية الجديدة حاولت منذ ظهورها أن تخلق عالمها الروائيّ المتميّز و ذلك باستعمال تقنيات سردية خاصة ، لعل أبرزها ما كان في توظيف الزمن توظيفا يجعل منه البطل في الرواية بحيث لم يعد الروائي يهتم بالتسلسل الكرونولوجي للأحداث ، بل إنه جعل يفجّر الزمن بحيث تتداخل خيالات الماضي مع أحلام المستقبل في لحظة من الحاضر قد لا تتجاوز يوما واحدا "[2].

" فالراوي قد يبدأ السرد في بعض الأحيان وفق تسلسل الأحداث، و قد يقطعه بعد ذلك ليعود إلى وقائع تأتي سابقة لترتيب السرد عن مكانها الطبيعي لزمن القصة، و هناك أيضا إمكانية استباق الأحداث في السرد بحيث يتعرف القارئ إلى وقائع قبل أوان حدوثها الطبيعي في زمن القصة "[3] . و هكذا فإنّ المفارقة إمّا أن تكون استرجاعات لأحداث ماضية أو تكون استباقات لأحداث لاحقة.

و تمثل تقنيتا الاسترجاع و الاستباق الأدوات الحاسمة في تغيّر وتيرة السرد، و تحريف تتابع القصة الخطي في "ثلاثية الجزائر" لعبد الملك مرتاض برواياتها "الملحمة، الطوفان و الخلاص" لهذا الدور، و هذه الأهمية سنفصل في هاتين التقنيتين حتى نبرز الأسباب التقنية و الجمالية لتوظيفهما.

1- الاسترجاع:

يعد الاسترجاع خاصية أساسية في الأعمال الروائية الحديثة ، حيث " يشكل كلّ استرجاع بالقياس إلى الحكاية التي يندرج فيها حكاية ثانية زمنيا "[4]، كما يتداول عند بعض النقاد باسم اللواحق و الاستذكار، و على العموم تلتقي كلّ هذه المصطلحات عند مفهوم واحد هو في معظم الأحوال: " كلّ عودة إلى الماضي تشكل بالنسبة للسرد استذكارا يقوم له ماضيه الخاص و يحيلنا من خلاله على أحداث سابقة على النقطة التي وصلتها القصة "[5].

فاسترجاع الأحداث الماضية و استمراريتها في الحاضر، لا يخضع لتسلسل كرونولجي متسق و إنما يتمّ الاختيار و الانتقاء وفق منبهات و مؤثرات اللحظة الحاضرة.

و تتجلى مظاهر الاسترجاع بصفة عامة في (مدى الاسترجاع) أو المسافة الزمنية التي يطالها الاسترجاع و تقاس بالسنوات و الشهور و الأيام، كما تتضح مظاهره أيضا في (سعة الاسترجاع) و تقاس بالسطور و الفقرات و الصفحات.

و في ما يلي رصد لبعض المقاطع الاسترجاعية بشقيها الداخلي و الخارجي على امتداد " ثلاثية الجزائر" برواياتها الثلاث " الملحمة ، الطوفان و الخلاص " .

1-1-الاسترجاع الداخلي :

تكون الاسترجاعات الداخلية بالعودة إلى نقطة مضت و تجاوزها السرد ، لكنها واقعة داخل الزمن القصصي و قد عرّفها جيرار جنيت بأنّها :" الاسترجاعات التي تتناول خطا قصصيا (وبالتالي مضمونا قصصيا) مختلفا عن مضمون الحكاية الأولى (أو مضامينها) ، إنّها تتناول إمّا شخصية يتم إدخالها حديثا ويريد السارد إضاءة سوابقها .... و إمّا شخصية غابت عن الأنظار منذ بعض الوقت، و يجب استعادة ماضيها قريب العهد "[6]. و بعبارة أخرى هو: " الذي يستعيد أحداثا وقعت ضمن زمن الحكاية أي بعد بدايتها "[7].

بالعودة إلى روايات "ثلاثية الجزائر" و البحث عن كيفية استثمار الراوي لهذه التقنية (الاسترجاع) نجد أنّه قد وظفها بكثرة، فمعظم أحداث الرواية قائمة على الاسترجاع خاصة الداخلي منه، و من ذلك ما يلي:

نجد في رواية الملحمة استرجاعا في قول الأمّ زينب : " كانت الجنّ، يا أولاد، استبدَّت بمدينتكم هذه فسكنتْها، فيما مضى من الزمن السحيق، دهراً طويلاً، ثمّ تجرّأ أجدادكم الأكرمون عليهم فشاركوهم سُكناها، قبل أن يفزَعُوا إلى أحد الأبدال الذي لم يلبَث أن عالج عُنَّانَهُمْ بالرُّقَى والتعاويذ وأنواع البَخور إلى أن اضطَرَّهم إلى الجلاء عنها إلى الأبد، وترْكِها خالصةً لأجدادكم الأكرمين الذين هم أقبلوا على عِمارتها، وجدُّوا في تزيين شوارعها، وتنميق سَاحِهَا، فازْدانت بعِمارتهم، حتّى أصبحتْ إحدى عجيبات المدن على الأرض "[8].

إذا بحثنا في كنه هذا الاسترجاع الداخلي وجدناه يتضمن عدة دلالات لعل أهمها إعلامنا و فتية أمّ العساكر بسرّ تكالب الوحش الرهيب على المدينة الفاضلة ، فهي ليست مدينة عادية، بل تحمل

من العجائبية الشيء الكثير ، بدءا من سكانها الأصليين وصولا إلى اهتمام الأجداد الأكرمين بها و إعمارها .

كما تنتقل بنا الأمّ زينب إلى استرجاع داخلي آخر يبيّن همجية المرتزقة الذين أتوا مع الوحش الرهيب ، فلا دين يحكمهم و لا إنسانية ، تقول : " كان المرتزقةُ يتحاكَوْن كلّ مساءٍ، في ثُكْنَتِهِمْ، ويتبجّحُون بما وقعَ لهم من الغنائم من حرائر أمّ المدائن الكبرى، فكان الواحد منهم ربما تعلّم الجرأةَ من صاحبه، إذا كان لم يبلغ في ارتكاب الجرائم أقصى حدودها في اليوم الذي مضى وذلك حتّى لا يتهَيَّبَ حين يتّفق له اسْتِباحةُ حرمةِ بيتٍ من البيوتات غداً، فينتهبَ منه ما استطاع انتهابَهُ حتّى لا يُبْقِيَ ممّا غلاَ ثمنُه، ونَدُر وجوده أو نظيرُه، فلا يذَرُ منه شيئاً! فكانوا لا يزالون يتفاخرُون ويتبجّحُون ويتَمَجَّحُون بأَيُّهُمْ كان أكثَرَ نَهْباً، وأَيُّهُمْ كان أَشْنَعَ سلْباً! "[9].

و في سياق حكائي آخر تقول الأمّ زينب : " وأرسل كبير شيوخ المحروسة المحميّة جيشاً صغيراً فناوش الوحش الرهيبَ وخلعاءَه فلم يُفلحْ في ذلك شيئاً كثيراً، لمتانة التحصينات، ولضعف الخطّة الهجوميّة، فغادر الجند وتركوا المبادرة للمقاومة المحلّيّة التي استمرّت ضاريَة حاميَة... وأصبحت الخسائر في رجال مقاومتنا، أثناء ذلك، قليلة. ولكنّ خسائر العدوّ كانت قليلةً أيضاً، لقلّة عُدَدنا، وضعف إمكاناتنا. غير أنّ ذلك كان يُقلقه كثيراً، لأنّه أدرك أنّ أهل المدينة الفاضلة يرفضون وجوده رفْضاً. ويُصرّون على ذلك إصراراً"[10] .

بهذا الاسترجاع تكشف لنا الساردة عن رفض سكان المدينة الفاضلة للوحش الرهيب و محاربته بكل ما أوتوا من قوة رغم قلة عددهم، و ضعف عدّتهم لكن عزيمتهم و إصرارهم كانا أقوى من كل العراقيل و الصعاب، لأنهم قوم سلام يمجدون الحرية و يبغضون الظلم و الاستبداد .

و من الاسترجاعات الداخلية التي زخرت بها الثلاثية أيضا ما ورد في الجزء الثاني " الطوفان" على لسان الأمّ زينب ، و نذكر منها :

" وقد ذكرت الأخبار الصحيحة أنّ السيّدة فاطمة نسومر، رحمها الله، لم تستسلمْ قطُّ، كما زعم بعضُ الكَتَبة ممّن لا يدقّقون في نقْل الأخبار، للكائن الغريب العنيد، العدوّ، حين ارْتَمَاهَا بالاستسلامِ له، في حين أنّها هي، في الحقيقة، أُصيبتْ بشلَلٍ مُفاجِئٍ فشَلَّها، فانقَضّ عليها الكائن الغريبُ العنيد انقضاضاً..."[11].

إنّ الهدف من هذا الاسترجاع إثبات شجاعة و قوة المرأة الجزائرية عامة و البطلة لالا فاطمة نسومر خاصة ، فرغم كونها امرأة تعيش في مجتمع تقليدي محافظ إلا أنّها أثبتت للعالم بأسره أنّ حب الوطن و التضحية من أجله أسمى من أيّ شيء في الوجود ، و أنّ الاستسلام للكائن الغريب العنيد ليس من شيم أبنائه أو بناته .

و نجد أيضا " أنّ القنصل دوفال، التاجرَ الطمّاع، أغرَى اليهوديَّ بكري بأن يشدِّد في المطالبة، ويُلْحِفَ في الْمُساءلة، وذلك ابتغاءَ تحصيل مالِه مما كان باع للكائن الغريب العنيدِ الذي كان عزَمَ على غزْوِ أرضِ آبائكم الأكرمين، من القموح؛ إذْ كان كبيرُ شيوخ أمّ المدائن الكبرى هو الضامنَ، أصلاً، كما جرت العادة في أصول العَلاقات التجاريّة بين الدول، لمالِ اليهوديّ بكري الذي كان شؤْماً على أهل المحروسة المحميّة البيضاء"[12].

يوضح هذا الاسترجاع الداخلي المتسبب الأساسي في المصيبة التي لحقت بالمحروسة المحمية البيضاء ، وهو اليهودي بكري الذي عقد صفقة مربحة مع القنصل دوفال ،مفادها الإلحاح الشديد على استرجاع أمواله التي أبى الكائن الغريب العنيد تسديدها إيّاه زاعما عجزه عن ذلك من كبير شيوخ أمّ المدائن الكبرى باعتباره الضامن الوحيد لهذه الصفقة ، لكنه رفض ذلك فتأزمت الأوضاع بين المحروسة المحمية البيضاء و الكائن الغريب العنيد، الذي اغتنم الفرصة لاحتلالها .

و في سياق آخر تقول الأمّ زينب :" لقد انطلق أعوانُ الكائن الغريب العنيدِ في أحياء المدينةِ وهم مسلَّحون يُبِيدون ويعرْبدون بأسلحتهم الناريّة التي كانوا مسلَّحين بها. كانوا يُبِيدون كلَّ كائنٍ يتحرّك فيها، من أهل المحروسة المحميّة البيضاء. كانوا كالوحوش الضاريَة العَجْماء... تساقط الشُّهداء. وتكاثرت الأشلاء. وسالت الدماء. صارتْ طوفاناً غرِقَ فيه أهل المحروسة المحميّة البيضاء. كانوا يعرفون أنّ

الطوفان ينشأ عن إلْحاحِ السّماءِ بِتَهْطَالِ الماء الْمِدرار، لا عن هذه الدماءِ: دماءِ الأطفال والنساء التي كوّنتْ طوفاناً بشِعاً"[13].

يبيّن لنا هذا الاسترجاع همجية الكائن الغريب العنيد (فرنسا) ، و جرائمه البشعة في حق سكان المحروسة المحمية البيضاء (الجزائر) ، و التي انجرّت عنها مجازر 8 ماي 1945م هذه المجازر التي لم تفرق بين امرأة أو رجل ، بين صغير أو كبير،فكان طوفان الدماء يجري بلا انقطاع دماء الأبرياء من سكان الجزائر .

استرجاعات داخلية أخرى نستشهد بها من الجزء الثالث " الخلاص " ، تقول الأم زينب : " تحت هذه الشجرة المباركة نفسِها، كان أولئك الأبطال ينتدُون ليتدبّروا أمرَ إشعال نار أمّ الثورات الكبرى...كنتُ أراهم من حيث لم يكونوا يَرَوْنني... وكنت أسمعهم من حيث لم يكونوا يسمعونني... كنت أختالُ في الأفْضِيَة السحيقة العليا، وأتباهَى في أرجائها، بعد أن كنت أسمعهم يقرّرون لِلَحظةِ الصِّفْر الكبرى..."[14].

يحملنا هذا الاسترجاع إلى أيام التخطيط لاندلاع ثورة التحرير المجيدة، فالشعب الجزائري عانى كثيرا من ويلات الاستعمار الفرنسي ، وكان لابد له من إشعال فتيل الثورة حتى يثبت للعالم أنّه مستقل عن الكيان الغريب الدار .

و في سياق حكائي آخر :" كان مصطفى الثائر وصاحبُه أمْعَنا في سفرهما، إلى أن كادا يبلُغان الحدودَ الليبيّة الشماليّة، لوما أن وقعَ ما وقعَ لهما! ففي هنالكَ باغتَهما أعوانُ الكيان الغريب الدّار فألْقَوْا القبْضَ عليهما"[15].

فالساردة في هذا السياق تسترجع المكيدة التي دبّرها الكائن الغريب الدار لمصطفى و رفيقه بالتعاون مع أحد الخونة، فكانت النتيجة أن وقع مصطفى في الأسر. لكن فرحة المستعمر لم تكتمل لأن مصطفى تمكن من الهرب بفضل تخطيط رفاقه، و في هذا المقام تسترجع الأم زينب شكر مصطفى لرفاقه :" ما أعظمَكم رجالاً، خاطبهم مصطفى الثائرُ... كيف استطعتم أن تغالطوا أحراس السجْن واختراق نظامهم الأمنيّ المتشدّد فألبستموني ضابطاً؟!... ولم يُرْضِكم ذلك حتّى دبّرتم فرارَ تسعة مناضلين آخرينَ، ممن كانوا في السجن معي، في ليلةٍ واحدةٍ..."[16].

و في سياق آخر :" وبعد زمن من رجوعه قاد مصطفى الثائر معاركَ ومناوشاتٍ ضدّ جيش الكيان الغريب الدار إلى أن جاءت ليلة الثالثِ والعشرين من مارس وكانتْ ظلماء، فعقد مصطفى الثائرُ اجتماعاً حافلاً حضره زهاءُ ثلاثِ مئةٍ مجاهدٍ، أو يزيدون عَدداً. وكان القدَر قد بيّتَ لمصطفى شيئاً ليس عاديّاً!... فقد كان الكيانُ الغريبُ الدارِ يتابعه من بعيد، فكان يدبّر له خُطط الاغتيال بواسطة الخائنين من بعض مَن كان يثق فيهم من المقرّبين منهم، وما درَى... فانفجر عليه مذياع فخرَّ مصطفى الثائرُ شهيداً!..."[17].

إنّ الهدف من هذا الاسترجاع الداخلي إظهار شجاعة مصطفى، و جبن الكيان الغريب الدار الذي لم يجد غير استعمال المكيدة للتخلص من مصطفى بمساعدة الخائنين الذين أغراهم بالأموال و الأملاك ظنا منهم أنّه باق لا محالة، خاصة بعد قتل مصطفى القائد الأول للثورة لكنهم أخطؤوا لأنّ الجزائر الشماء أنجبت أبطالا آخرين أكملوا المسيرة و حققوا الاستقلال .

تمثل هذه الاسترجاعات و أخرى حفلت بها الثلاثية، استرجاعات داخلية تهدف أساسا " لربط حادثة بسلسلة من الحوادث السابقة و المماثلة لها "[18] في الرواية.

<u>2-1- الاسترجاع الخارجي :</u>

يعرف جيرار جنيت الاسترجاع الخارجي بأنّه " ذلك الاسترجاع الذي تظل سعته كلها خارج سعة الحكاية الأولى "[19]، فهو " الذي يستعيد أحداثا تعود إلى ما قبل بداية الحكي "[20]، و بعبارة أوضح تمثل الاسترجاعات الخارجية رجوع الراوي إلى أحداث ماضية وقعت قبل أن يبدأ سرد أحداثه .

و قد شغلت الاسترجاعات الخارجية حيّزا كبيرا في الثلاثية، حيث انفتحت على اتجاهات زمنية حكائية ماضية لعبت دورا كبيرا في رسم مسار الأحداث، منها استرجاع الراوي لحقيقة الأمّ زينب حيث يقول : " فمِن الشيوخ مَن كان يَعْزُوها إلى جيلٍ من علماء الجنّ المؤمنين ومن أوائل قارئِي القرآنِ وحفَظتِه في القرون الخالية. ومنهم مَن كان يعْزوها إلى فريق من الملائكة ممّن أُوكِلَ إليهم الهبوطُ إلى

الأرض ليتدبّروا بعض شؤونها. ومنهم من كان يرى أنّها لا هي من الإنس، ولا هي من الجنّ، ولا هي من الشياطين، ولا هي أيضاً من الملائكة؛ ولكنّها كائن عجائبيٌّ أتى من تلقاءِ جبل قاف منذ القِدَم السحيق، بصحبة بدَلٍ من الأبْدال، فليس لهذا الكائن في الوجود من نظير. كما أنّه يَعْتاصُ على أيّ تصنيفٍ ممّا يَعقِلون"[21].

حاول الراوي في هذا الاسترجاع الخارجي إظهار الصورة الحقيقة للأمّ زينب لكنه لم يتمكن من ذلك فهي ليست كالكائنات الأخرى، و بالتالي لا يمكن تصنيفها ضمنهم لأنها كائن عجائبي.

و في سياق آخر يقول :" كانت الأمّ زينب، فيما تزعم الْحُكاةُ، قد تعلّمت كلّ تلك الحِكَم والعلوم واللغات والأخبار جملةً واحدة، وذلك لأنّها حين زارت جبلَ قاف مع البدل الكريم، التقتْ بكثير من الأولياءِ والصالحين هناك، وجلست في مجلس السيد الخضر عليه السلام فاستمعتْ منه وتقرّبتْ إليه، فهو الذي علّمها كثيراً من الأخبار والأسرار والحِكَم والعلوم واللغات في تلك الرحلة المباركة..."[22].

إنّ هذا الاسترجاع الخارجي يكشف للقارئ سرّ إلمام الأمّ زينب بكل هذه الأخبار و العلوم و اللغات، فكل هذه المعرفة ليست وليدة التجارب اليومية التي عاشتها الأمّ زينب لكنها وليدة زيارتها لجبل قاف، و احتكاكها بالأولياء و الصالحين، خاصة السيد الخضر عليه السلام .

و من الاسترجاعات الخارجية الأخرى استرجاع الأمّ زينب لقصة عصاها العجيبة تقول: " لقد حدّثني أبي، حدَّثه جَدّي، حدّثه جَدُّ جدّي، حدّثه جَدُّ جَدِّ جَدِّي، إلى الْجَدِّ الأعلى في شجرة النسب الطويل، قال: إنّ هذه العصا هي، في الحقيقة، متوارَثةٌ منذ الأزل السحيق، ولا أحدَ يعرف مَن كان استعملها أوّلَ مرّةٍ على وجه اليقين، مع ما نعلم بأنّ بعض الروايات، وهي ضعيفة على كلّ حال، لا تتردّد في الذَّهابِ إلى نسبتها إلى النبيّ موسى بنِ عمرانَ عليه السلام... بل جاء في بعض الأخبار العزيزة الأخرى أنّ هذه العصا قد تعود إلى عهد السيد الخضِر عليه السلام الذي علّم النبيّ موسى بن عمران ما لم يكن يعلَم... وكان السيد الخضر، فيما تزعم الأخبار، اتّخذ تلك العصا من شجرة الزيتون المبارَكة التي أنبتها الله أوّلَ مرة على الأرض، قبل أن تُسَخَّرَ هذه الشجرةُ للإنسان يغترِسها فيأكل من لذيذ ثَمَرِها، وينتفع بمُبارَكِ زَيتِها"[23] .

بواسطة هذا الاسترجاع تحاول الأمّ زينب إعطائنا شرحا وافيا عن عجائبية هذه العصا، التي تمكنها من الاختفاء كلما أرادت ذلك ، فهي ليست عصا عادية بل عجائبية بالنظر إلى قوّتها و أصل وجودها .

تتهادى خطوات الساردة أمّ زينب الاسترجاعية، لتقف بنا عند إخبار الأمواج للأمير عبد القادر عن أهمية الصخرة التي يجلس عليها ، فهي ليست كبقية الصخور ، تقول: " ...هذه، الصخرةُ المبارَكةُ وقد جلستَ عليها... وما يُدريك أنت؟ وما يُدرينا، نحن أيضاً؟ فقد يكون الخضِر وموسى عليهما السلامُ جلسا عليها حين وافَيا مدينة الجدار الذي كان يريد أن ينقضّ، فأقامه الخضر تحت استِنكار موسى... "[24].

إنّ استرجاع الأمواج لقصة سيدنا موسى و فتاه مع الصخرة، و بحثهما عن السيد الخضر ماهي إلا محاولة منها للتخفيف من حزن الأمير عبد القادر، الذي وجد نفسه في نهاية المطاف مجبرا على ترك محروسته المحمية البيضاء لا مخيّرا ، فالإنسان لا يدرك كل ما يتمناه دفعة واحدة بل يكفيه شرف المحاولة في كثير من الأحيان، و المهم أن لا مكان للاستسلام و الخنوع .

و من الاسترجاعات الخارجية للأمّ زينب نذكر أيضا استرجاعها لقصة الشجرة الدهماء التي أدهشت سكان مدينة الأبطال السمراء نظرا للأضواء الساطعة و الأصوات المنبعثة منها حيث تقول : " فقد كانت الجدّاتُ، في أرجاء المحروسة الحبيبة، المحميّة البيضاءِ كلّها، يَحْكِين لأحفادِهنّ أنّهنّ كنّ لم يزَلْنَ يسمَعْن من أجدادهنّ، كما كان أجدادُهنّ لم يزالوا يسمعون من أجدادِهم الأُلَى، أنّ الجِنَّ هي التي كانت عمَدَتْ إلى اغْتِراسِ تلك الشجرةِ الدّهماء، مُذُ الدُّهور الغابرة. ولم يكن لها مِثْلٌ يَحْكِيها من كلّ الأشجار على وجه الغبراء. ولذلك كانت الجنُّ تستظلّ بظِلّها نهاراً، وتعبثُ بأنواعٍ من اللّهْو تحتها ليلاً"[25] .

يمثل هذا الاسترجاع تبريرا لعجائبية هذه الشجرة العظيمة الجذع ، فلا أحد من سكان هذه المدينة يعرف بالتدقيق تاريخ نشأتها ، و لعل هذا التفسير يجعل الكثير من الناس يؤمن بضرورة الابتعاد عنها خوفا مما سيلحق بهم من أذى .

ما تجدر الإشارة إليه أنّ معظم الاسترجاعات الخارجية في الثلاثية، كانت عبارة عن ذكر لحوادث و أشياء متسمة أغلبها بالطابع العجائبي ، مثل: العصا ، الصخرة، الشجرة الدهماء العين العجيبة ...

كما لا يفوتنا الإقرار بأن معظم هذه الاسترجاعات داخلية كانت أو خارجية، قد ربطتها الساردة إما بحوادث أو شخصيات تاريخية أو عجائبية. و من دلالة هذا الارتداد إلى الوراء، أنّ الساردة تريد إخبارنا بأنّ أي شيء موجود اليوم، ليس وليد الساعة، بل له امتداد في الماضي و لهذا لا يمكننا أن نعيش في حاضر منفصل عن الماضي، و بهذا تغدو عملية" استرجاع الماضي السبيل إلى إدراك بعض إشكاليات الراهن و تفسيرها"[26].

و لا يجب علينا أن ننظر إلى تقنية الاسترجاع " على أنّها تقنية زمنية محضة، يقف عندها التحليل الزمني، بل هي إحدى الوسائل التي توظف في النص الروائي للتعبير عن أبعاد جمالية و دلالية يستهدفها الكاتب"[27].

مما تقدّم ذكره، يمكن أن نقف على جملة من الملاحظات:

-معظم أحداث "ثلاثية الجزائر " جاء سردها عن طريق الاسترجاع، خاصة ما كان منه على لسان الأمّ زينب .

-تسجل الاسترجاعات الداخلية حضورا قويا في "ثلاثية الجزائر "، مقارنة بالاسترجاعات الخارجية.

-عملت الاسترجاعات الخارجية على إعلام القارئ بأمور سابقة .

-تقوم أحداث" ثلاثية الجزائر" في معظمها على الاسترجاعات بشقيها الداخلية و الخارجية و ذلك برجوعها إلى الماضي و توظيفه، بغية حملنا إلى عوالم و أحداث جديدة، تصب معظمها في تاريخ الجزائر المجيد.

2-الاستبـــاق:

عرف الاستباق هو الآخر حضورا في "ثلاثية الجزائر"، و لكن قبل التطرق لمدى توظيفه فيها سنتعرف أولا على أهم تسمياته و تعريفاته .

تعددت تسمية الاستباق بين السابقة، التوقع، التنبؤ...، و قد عرفه جيرار جنيت على أنّه " كل حركة سردية تقوم على أن يروى حدث لاحق أو أن يذكر مقدما "[28]، و" هو مخالفة لسير زمن السرد تقوم على تجاوز حاضر الحكاية وذكر حدثٍ لم يحنْ وقتُه بعد "[29].

و يأتي الاستباق " بمثابة تمهيد أو توطئة لأحداث لاحقة يجري الإعداد لسردها من طرف الراوي فتكون غايتها في هذه الحالة هي حمل القارئ على توقع حادث ما أو التكهن بمستقبل إحدى الشخصيات...كما أنها قد تأتي على شكل إعلان عمّا ستؤول إليه مصائر الشخصيات"[30].

و يبقى الاستباق عكس الاسترجاع الذي يتنامى صعودا من الحاضر إلى الماضي ليعود إلى الوراء استشرفا إلى المستقبل ، متناميا صعودا من الحاضر إلى الأمام ، محدثا قفزة تتخطى النقطة التي وصل إليها السرد.

و فيما يلي عرض لأهمّ تجلياته في "ثلاثية الجزائر" لعبد الملك مرتاض، بشقيه الداخلي و الخارجي.

2-1-الاستباق الداخلي :

يشير الاستباق الداخلي إلى الوقائع التي سوف تحدث فيما بعد، و"هو الذي لا يتجاوز خاتمة الحكاية ولا يخرج عن إطارها الزمني"[31]؛ أي أنّ الاستباق الداخلي لا يخرج عن آخر حدث في الرواية من حيث التسلسل الزمني للأحداث .

و يرى جيرار جنيت أنّ الاستباقات الداخلية تطرح " نوع المشاكل نفسه الذي تطرحه الاسترجاعات التي من النمط نفسه ، ألا و هو : مشكل التداخل ، مشكل المزاوجة الممكنة بين الحكاية الأولى و الحكاية التي يتولاها المقطع الاستباقي "[32].

و رغم أنّ "ثلاثية الجزائر " في أغلبها ذكريات تسترجعها الأمّ زينب ، إلا أنّها تتضمن داخلها سرد حكايات فرعية تحوي الاسترجاع كما تحوي الاستباق أيضا .

من ذلك مخاطبة حسناء المدينة لخطابها و دفعهم إلى التفكير في طريقة يدافعون بها عن مدينتهم التي ستحتل قريبا :" لقد سمعنا أنّ وحشاً رهيباً سيغزُوها قريباً فيَعْثِي عُثِيّاً في الدّيار. سيجعل أعزّةَ أهلِها

أذلّةً، وسيجعل أعالِيَها أسافلَ، وأسافلَها أعالِيَ... أفيكون ملائماً لكم، والحالُ ما هي، أن تُشْغَلوا بأمر الزواج بدل التفكير في الدفاع عن المدينة الفاضلة التي ستُغْزى؟ ... "[33].

إنّ هذا المقطع الاستباقي ، يبيّن أنّ الكارثة ستقع حتما بغزو الوحش الرهيب للمدينة الفاضلة فوظيفة الاستباق هنا التمهيد لما سيحدث ، لذا حثت حسناء المدينة الرجال إلى التفكير في كيفية مجابهة هذا الوحش الدموي الذي سيذلّ أهلهم ،و يدمّر مدينتهم .

و في سياق آخر يخبر الوحش الرهيب أعوانه بما سيفعله في المدينة الفاضلة ، حيث يقول: "وفي خطّة رمزيّة سأُحْرق كلّ شيءٍ في المدينة الفاضلة، عسى أن أُجزَى بذلك خيراً! يُخرَج الناسُ ممّن في المدينة الفاضلة إلى العَراء. ثمّ يَهيمون على وجوههم في الفضاء، كما كانوا أوّلَ مرّةٍ"[34].

استباق داخلي آخر يتمثل في تنبئ حسناء المدينة بتحرر المدينة الفاضلة من الوحش الرهيب ، حيث خاطبته قائلة :

" ثق بأننا سنطردكم من مدينتنا طردا مذلا
سنقمكم وقما ,
سنقهركم قهرا ، كما قهرناكم في مزغران فهزمناكم هزما...
سنخرجكم من مدينتنا إخراجا
سنحرقكم فيها إحراقا ، ثم نقبركم في مقابرها إقبارا.
لن تكون أرضنا متنزها لكم تختالون فيه و تمرحون ،و لكنها ستكون مقبرة مهولة لخلعائكم فيها يقبرون ...
لن تجديك ، مع كل ما نعد لك ، قوتك المتوحشة التي لم تزل تتبجح بها علينا ، بل ستخرج ، إن شاء الله صاغرا ذليلا ...

سنضربك بمقاومة لا قبل لك بها ! سنقتل من جندك و أعوانك دون أن ترونا . لن نجابهكم أوّل أمر لأنكم الأكثر و الأقوى . و لكنا سنقاومكم بما نتدبّر من خطط و بما نرى . ثم نواجهكم رجلا لرجل فنبلي في ذلك بلاء كريما... فأبشر أيّه الوحش الرهيب ، المحتلّ السارق اللّص الغاصب ، بنيران فتياننا التي ستصليك من تحتك و من فوقك و من أمامك و من خلفك فلا تدري من أين تُأْتَى ؟ و إن لم تقتنع بكلامي فستقرع من ذلك سنّك ندما. أرضنا طاهرة نرفض أن تنجّس بأقدامكم، و عمّا قريب سترى ! سترى ! ... "[35]

كلّ هذه الاستباقات التي بلغت حوالي صفحة كاملة تدل على يقين حسناء المدينة و ثقتها بأبناء المحروسة المحمية البيضاء، الذين لن يرضوا بالاستعمار تحت أيّ شكل من الأشكال لأنهم ولدوا أحرارا و سيموتون أحرارا ، و بالفعل هذا ما حدث بعد ذلك حيث اشتعلت نار الثورات في كل أرجاء المحروسة ، و لم يهدأ أبناؤها إلا بعد أن تمكنوا من إخراج الوحش الرهيب ذليلا مطأطأ الرأس .

و بهذا تكون حسناء المدينة قد تقلدت وظيفة الإعلان ، حيث تخبر "بصراحة عن سلسلة الأحداث التي سيشهدها السرد في المستقبل"[36].

و هو ما تنبأ له الوحش الرهيب أيضا ، حيث يقول : " إنّه ليَخيَّلُ إليّ أنّنا خسِرْنا كلّ شيء، أيُّهُ الأعضادُ! لا الحسناءَ سبَيْناها، ولا المدينةَ الفاضلةَ امتلكناها... يبدو أنّ القوم سيدْحَرُوننا من هذه الديار دُحُوراً. يبدو أننا سنندحر بضرَباتهم الْمُوجِعة. يبدو أنّنا سنتقهقرُ من حيث جئنا، إلى حيث كنّا. وأخشَى ما أخشاه أن يكون مصيرُنا مثل مصيرِهم في القرون الأولى! كما تَدينُ تُدان! أردْنا كتابة التاريخِ بِأَخَرَة من الزمن فعقَّنا ولم يَبَرَّنا بِرّاً "[37].

فكل هذه الاستباقات دالة على استقراء الوحش الرهيب لمصيره المحتوم على يد سكان المدينة الفاضلة ، الذين طردوه شرّ طردة لكنه يأبى الخسارة ، و يتوعّد بالعودة من جديد ، فيقول : " سنعود... أعني أنّا سنعود إلى المدينة الفاضلة تارة أخرى، وسننتصر على الأعداء، سنأتيهم بجيش عرمرمٍ لا قِبلَ لهم به حتماً. يومئذ سنقيم في المدينة الفاضلة وسنتّخذها قاعدة لانطلاقنا لغزْو مدائنَ أخرى، إذْ كانت أقربَ نقطة من جزيرتنا العامرة... أُقسم لكم على ذلك قسَماً! سنعود إليهم تارة أخرى. وسنخرّب أكثرَ ممّا خرّبْنا أولَ مرّةٍ. سنعود إليهم بقُوّاتٍ أكثرَ عَدَداً، وبجيش أفتكَ سلاحاً. أُقْسم إنّا سنقتل

منهم يومئذ أكثرَ ممّا قتلْنا قَبْلاً. ولن نتركَ أهل المدينة الفاضلة ينعَمون بالسّلْم والأمْن أبداً... سنحتلّها تارة أخرى، ونُقِيم فيها بنسائنا وأطفالنا، و صُغَرائِنا وكُبَرائنا. وإلى أبدِ الآبِدين! فهؤلاء قوم لا يُخِيفوننا بمقاومتهم البدائيّة. ولئن كانوا اليوم فاجأُونا بانتفاضتهم المدهشة فتلك كانت مفاجأة، ولن نُخْدَعَ بعدها أبداً. سنرى حين نعاود تسليحَ جيشنا بالمدافع الثقيلة، ونُمِدُّه بأَفْتَكِ الْخُلعاء وأقواهم عند القتال: مَن سيكون منّا الأضعفَ ومن سيكون منّا الأقوى؟

نحن عائدون إليكِ يا فاضلة، يا بهيّة، يا سمراءَ المدائن، يا باسمة الثغر، فالتفريط فيك بلاهة وقصور! إنّا لا نقول لك: وداعاً، ولكنّا نقول: إلى اللّقاء! إلى اللّقاء لأنّا سنعود... ذاك عهد نقطعه على أنفسنا!..."[38].

يبيّن هذا المقطع الاستباقي إصرار الوحش الرهيب على احتلال المدينة الفاضلة مرّة أخرى بهمجية أكبر مما كان عليها من قبل ، و بجيش أكبر عددا، و أقوى سلاحا ، فوظيفة الاستباق هنا التمهيد لما سيحل بالمدينة الفاضلة بعد فترة .

استباق داخلي آخر اكتنفته هذه الثلاثية، و يكمن في تنبئ الجن لما سيحدث في المحروسة الحبيبة من دمار و خراب جراء الوحش الرهيب ، و يقينهم بأن علاقتهم مع سكان مدينة الأبطال السمراء ، و جدالهم حول الشجرة الدهماء، لا يضاهي ما سيحدث لهم في المستقبل مع هذا الوحش القادم من وراء البحر تقول : " لو ظل الأمر مقتصرا على علاقتنا بجيراننا لهان الأمر علينا و لكنا عسينا أن نتعايش معهم على مضض ما ، و لكن كائنا شريرا سيأتي من وراء البحر ، فيما يخبر به الشيوخ من حكمائنا ، فيحرق بنيران قذائفه بقايا ما يحيط بشجرتنا هذه المباركة الخضراء و يهدم معبدها ، ظنا منه أن الذين يقاومونه يتخذون منها و منه لهم مجتمعا و منتدى ... هو كائن شرير خبيث جبار عات، و سيعيث في أرض المحروسة الحبيبة، المحمية البيضاء فسادا فظيعا، سيحرق الشجر ، سيقتل البشر ، سيغتصب النساء ..."[39].

تمثل هذه الرؤية شاهدا إثبات حقيقي لتنبؤات شيوخ الجن، لأنّ توقعاتهم كانت صائبة و صريحة و حقيقية لما سيأتي، و ما ستؤول إليه المحروسة المحمية البيضاء على يد هذا الوحش الهمجي .

و في سياق آخر يخبر مصطفى الثائر ما سيجنيه من تدربه على استعمال السلاح واكتساب الخبرة العسكرية قائلا :" وأمرٌ ثالثٌ نسِيتُ أن أذكُرَه لكم أيضاً، وهو أنّي سأسعَد بالتمرّس على استعمال السلاح واكتساب الخبرة العسكريّة كيما أكونَ في اليوم الأعظم متأهّباً له، وفيه خبيراً. فإنّي لا أدري لِمَ أجدُني متقبّلاً الأمرَ، لأوّل مرّة، وأنا أخدم علَم دولة أجنبيّةٍ، بل دولة محتلّة ظالمة، ومتغطرسة غاشمة!؟ ربما لأنّي أشعُر شعوراً قويّاً بأنّي بخدمة ذلك العلَم الأجنبيّ، فأنا سأخدم علَم محروستي، حبيبتي، معشوقتي، أُمَيْمَتِي، يوماً ما، حتماً... إذْ مثلُ تلك الخدمةِ ستُتيح لي اكتسابَ الخبرة في استعمال السلاح، ومعرفة أنواعه... إنّ الإيمانَ، وحدَه ما كان يوماً كافياً، إذا أردتم الحقّ، بل لا بدّ مِنْ أن يكون مصحوباً بالتجربة وحُسْن الممارسة أيضاً. وذلك ما سيَتمّ لي، إن شاء الله، فعْلاً: الإيمانُ، والخِبرة بالسلاح من أجل استعماله في ساحة الوغى، حين تشتعل نار الثورة الكبرى... لتحريرها... لتحرير معشوقتي المسبيّة، وهي، إن شاء الله، المحميّة..."[40].

إنّ هذا المقطع الاستباقي يحضّر القارئ لما سيأتي، و يُطْلِعُه على ما يمكن وقوعه انطلاقا من وجود ما يبرر ذلك في الحاضر ، خاصة أنّه ورد على لسان من يخطط للحدث و وقوعه .

2-2-الاستباق الخارجي :

و"هو الذي يتجاوز زمنه حدود الحكاية، يبدأ بعد الخاتمة ويمتد بعدها لكشف مآل بعض المواقف والأحداث المهمة والوصول بعدد من خيوط السرد إلى نهاياتها (استباق خارجي جزئي) وقد يمتدّ إلى حاضر الكاتب، أي إلى زمن كتابة الرواية (استباق خارجي تام)"[41].

و الملاحظ أن الاستباقات الخارجية نادرة في الثلاثية بمقارنتها مع نظيرتها الداخلية و نذكر منها قول الساردة أمّ زينب للبدل الكريم: "إنّي سأتعلّق بثيابك، و سأمسك بلحيتك و سآخذ بتلابيبك، فلا أذرك تغادر معبدي هذا إلا و أنا مصاحبة لك متعلقة بك ، إلى حيث الجبل العظيم ، جبل الأولياء و الصالحين"[42].

جاء هذا الاستباق الخارجي في إطار الحديث عن الزيارة المرتقبة للأم زينب إلى جبل قاف و إخبارنا عن كيفية مرافقتها لهذا البدل الكريم إن أبى اصطحابها.

و في سياق آخر :"لكنه كان في بعض أطوار تفكيره القلق يستسلم لشيء من الأمل العريض فيرى أنه لا مانع من موافقة أهلها على ذلك الزواج ليشرب من كأس حبّ فاطمة إلى الأبد ، فهو شخصية محترمة ، و فاطمة تعرف ذلك حتما ، و ستقدمه تقدمة كريمة إلى أهلها ، و بالصفات الحسنة التي هو أهل لها . ثم هو سيعتنق عقيدتها. ثم إن أسيرات من بلاد الجزيرة المحمية البيضاء كنّ تزوجن رجالا من المحروسة المحمية البيضاء، قبلهما، و لم يبدّلن دينهن. ثم إن بلده و بلدها جاران ،على ما بينهما من عداوة ستنتهي حتما ، يوما ما ، إلى صداقة عميقة ، لأن الجار لا يمكن أن يعادي جاره إلى أبد الآبدين"[43].

إنّ الشاعر ذا الذراع البتراء يتوقع في هذا المقطع الاستباقي تقدمة حسنة له من قبل حبيبته فاطمة لأهلها ، و بفضل هذه التقدمة يتوقع قبول أهلها الزواج منه ،خاصة و أنه سيعتنق الإسلام إضافة أن أسيرات من بلاد الجزيرة العامرة قد تزوجن من أبناء المحروسة المحمية البيضاء من قبل ، فلا مانع حسب رأيه من زواجه و فاطمة ، كما يتوقع أيضا حلول السلم بين بلديهما و تحوّل العداوة إلى صداقة قوية لأنهما جاران ، و المصالح المشتركة تفضي إلى ذلك .

تتوالى الاستباقات الخارجية في حديث الأمّ زينب حيث تخبر فتيان مدينة أمّ العساكر الخضراء أنّها ستحكي حكاية الخلاص لفتيان آخرين بعد أن حكت لهم حكاية الطوفان تقول : " فقد اخترت فتيانا آخرين من بني جلدتكم ، في رجا آخر من أرجاء المحروسة البيضاء ...هنالك سأحكي لهم حكاية الخلاص ، أو حكاية أم الثورات العظمى تحت شجرة الأرز الفرعاء ، بجوار مدينة الأبطال السمراء ، بعد أن حكيت لكم أنتم ، حكاية طوفان الدماء تحت شجرة الدردارة في أمّ العساكر الخضراء ..."[44].

يضعنا هذا الاستباق في حالة ترقب و انتظار لما ستحكيه الأمّ زينب لهؤلاء الفتية الجدد من بطولات أبناء المحروسة المحمية البيضاء و كفاحهم المرير في طرد هذا الاستعمار الغاشم، و هو ما خلق لنا حالة من التشويق تدفعنا إلى تتبع حيثيات هذه الحكاية في الجزء الثالث من " ثلاثية الجزائر ".

و في سياق آخر يخبرنا رضوان الأمين ، المهرج الظريف عن مآل كتابته الأدبية قائلا : " ولذلك، سترَوْن! يوم أن أكتبَ أنا! ذاك يومٌ آتٍ لا ريبَ فيه، حتماً! يومئذ سأغيّر من شكل الكتابة الأدبيّة رأساً على عقبٍ، وعلى الهيئة التي لا تستطيعون تَمَثُّلَها، اليومَ، أبداً! ستُصبح الحروفُ غيرَ الحروفِ، وستكون الألفاظ غيرَ الألفاظ؛ ومِن ثَمّ سيُصبح الكلامُ غيرَ الكلام؛ ومِن ثَمَّ سيُصبحُ الأدبُ شيئاً آخرَ يُلْغِي كلّ سخافاتِ كتّاب القرون الأولى، فتُرْمَى في مزابل النُّفاياتِ فتُمسي لَقىً!... لا هوميروس ولا فيرجيل! ولا كامي ولا ماركيز! ولا الجاحظ ولا حُسين!... إنّهم ليسوا إلاّ متمسّكين بالقشور ولم يتعمّقوا قطّ في اللُّباب!... مساكينُ هم كتّابُ العصور الخوالي، جميعاً!... آه! متى يأتي ذلك اليوم الذي لا ريبَ في أنّه هو آتٍ!... يوم سيكون الكشْف العظيم للكتابة العبقريّة التي ستَحِلّ محلّ الرقْص والموسيقَى والرسم والغِناء، فتجمع كلّ الفنون الجميلة في نفسها، فتطوي العوالمَ كلَّها في واحد!... هنالك، سترَوْن ما أرَى!

سترَوْن! يوم أن أشرَعَ في إنجاز مشروع الكتابة الأدبيّة الذي لا أزال أتمثّله في نفسي، ولكنّي لا أستطيعُ تفسيرَه لكم، لأنّ فكرته لَمّا تنضَجْ في ذهني، ولأنّ صورته لَمّا تَتَوَضَّحْ في قريحتي بَعْداً!... مَيْدَ أنّ كتابتي ستكون ثورةً مُزمْجرة في عالَم الأدب، يقيناً! لأنّها ستكون فريدةً من نوعها ولأنّها ستكون وحيدةَ دهْرِها. حتماً!... إنّي لَمّا أشرَعُ في تدبيجها حقّاً، لكنّها ستكون ثورةً عارمةً حين يَحِين حِينُها! أنا مِثْلُ بُثَينةَ جميلٍ، يا صِحاب، ظلّت تحلُم بشيء في عَلاقتها بحبيبها، وظلّت تمنّي نفسَها وتَعِدُها، وظلّت زمناً طويلاً تُنشِد بيتاً من الشعر ولا تيأس من تحقيق أمَلِها... أنا مثلُها حذْوَ النعلِ بالنّعل. لا أيأس من أن تقَع لي يوماً معجزةُ الكتابة الكبرى، فيقعَ الانفجارُ العظيم في مفهوم الكتابة الأدبيّة فتتقوّض كلّ الأشكال الأدبيّة السابقة أمام الشكل الذي سيُلْهِمُنِيهِ شيطاني العبقريّ الذي لا أزالُ أُنْظِرُه، -وهو الذي يتأوّبني كلّ ليلةٍ فيُلقي إليّ ببعض هذه الأفكار الغامضة الْحَيْرى-لعنه الله!- دون أن يضيف إليها شيئاً- إلى حين..."[45].

كلّ هذه الاستباقات التي بلغت حوالي الصفحة ، يتوقع فيها رضوان الأمين بلوغ كتابته الأدبية مراتب عالية،حتى أنّه سيتفوّق على من يظنهم الناس أعمدة الأدب ، فيثور على كتاباتهم ثورة عارمة ، لكن هذا التوقع ليس يقينا و إنّما محتمل فقط من قبله ، و لا تعدو أمام أصدقائه إلا أحلام يقظة .

و يقول أيضا في مقطع استباقي آخر: " فمَن يُلِمُّ بنا الليلةَ، يا تُرى!؟ ومَن عسى أن يكون هذا الضيفُ المنتظَرُ، الذي سيَعْزُونا؟ أيكون جاراً جُنُباً، أم سيكون جاراً ذا قُرْبَى؟ أم سيكون نائِيَ الدّار غريبَها؟ أم سيكون الشيخُ الضريرُ هو الذي يُلِمُّ بنا، كما واعَدَنا؟ أم تُلِمّ بنا شخصيّة غريبةٌ أخرى فتَزيدَنا حَيرةً وقلَقاً؟"[46].

سرعان ما يجد القارئ أجوبة لهذه الأسئلة، حيث أقبل عليهم الشيخ الضرير ، فكان لهذا الاستباق وظيفة إعلانية أعدّت القارئ لتقبل ما سيأتي ، و يمثل المقطع السردي : " بينا هم، إذن كذلكم، وإذا هم يسمعون وقْعَ قدَمين وهما تمشيان بتثاقُلٍ وجهدٍ، ممّا كان يدلّ على أنّ صاحبَهما إمّا أنّه كان شيخاً هرماً، وإمّا أنّه كان كهلاً دنِفاً، وإمّا أنّه كان مُنْهَكاً، من طُول المشْي، مُتْعَباً. ولم يشعُر الفتيةُ إلاّ وشيخٌ هرمٌ طويل بدين ملتحٍ مُعْتَمٌّ يقوم عليهم فيُحيّي، ثمّ يستأذنهم في الاضْطِمَامِ إلى مجلسهم إن لم يرَوْا في ذلك بأساً!"[47] إثباتا لهذا الإعلان الذي سرعان ما تحقق .

و من خلال تتبعنا لمفارقة الاستباق في "ثلاثية الجزائر " نستخلص ما يلي :

- معظم الاستباقات جاءت داخلية لا تخرج عن القصة الابتدائية .
- تفاوت الاستباقات في مساحتها النصية ، فمنها ما احتل بين الفقرة و الفقرتين ، و منها ما شغل صفحة كاملة .

-حققت معظم الاستباقات وظيفتها الإعلانية قبل نهاية أحداث الروايات الثلاث " الملحمة الطوفان و الخلاص ".

-كان لكلّ هذه الاستباقات دور كبير في دفع عجلة السرد إلى الأمام .

خلاصة القول أنّ المفارقة الزمنية تبقى مجرد لعب بالزمن ، يتوقف الكشف عنها " على مهارة الروائي و قدرته على إقناع القارئ و التأثير فيه"[48]، و هو ما أبدع فيه عبد الملك مرتاض في "ثلاثية الجزائر"، حيث وظف جماليات التلاعب بالزمن، التي قامت على المفارقات الزمنية بالاسترجاع حينا، و الاستباق حينا آخر.

كان الاسترجاع غوصا في الماضي السحيق لتاريخ الجزائر، و تجلية لوحشية و همجية الاحتلال الإسباني ثم الاحتلال الفرنسي، وما عاناه الشعب الجزائري آنذاك، أمّا الاستباق فمثّل نوعا من التنبؤات التي تحققت فيما بعد، سواء تعلقت بطرد الوحش الرهيب-الاحتلال الإسباني- أو قيام ثورة عظيمة مدوّية تزعزع الكيان الغريب الدار –الاحتلال الفرنسي-، و ما تجدر الإشارة إليه أنّ الاسترجاع كان أقوى حضورا من الاستباق، لأنّ " ثلاثية الجزائر" قائمة أساسا على استحضار تاريخ الجزائر الحديث، و إبراز ما غفل عنه المؤرخون.

الهوامش:

1. مها حسن قصراوي : الزمن في الرواية العربية ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، دار الفارس للدراسات و النشر ، ط1، 2004م ، ص51.
2. إلهام علول: جماليات النظام الزمني في الرواية الجديدة ، مجلة منتدى الأستاذ ، المدرسة العليا للأساتذة ، قسنطينة ، العدد3 ، أفريل 2007م ، ص 129.
3. حميد لحميداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي للطباعة و النشر و التوزيع ، الدار البيضاء ، المغرب، ط1 ،آب 1991م ، ص72.
4. جيرار جنيت: خطاب الحكاية، بحث في المنهج ، ترجمة : محمد معتصم و آخرون الهيئة العامة للمطابع الأميرية ، مصر، ط2 ، 1977م ، ص60 .
5. حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، (الفضاء - الزمن - الشخصية) ، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان ، ط1 ، 1990 م ، ص121.
6. جيرار جنيت: خطاب الحكاية، ص61 .

7. لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرواية – عربي ، إنكليزي ، فرنسي-، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، لبنان ، ط 1، 2002م ، ص 20.
8. عبد الملك مرتاض : ثلاثية الجزائر،الأعمال السردية الكاملة، منشورات مختبر السرد العربي، جامعة منتوري، قسنطينة، 2012م، المجلد3 ، ص 28.
9. الثلاثية ، ص 294.
10. الثلاثية ، ص ص 144 ، 145.
11. الثلاثية ، ص 261.
12. الثلاثية ، ص 283.
13. الثلاثية ، ص 459.
14. الثلاثية ، ص 637.
15. الثلاثية ، ص 761.
16. الثلاثية ، ص 773.
17. الثلاثية ، ص 773.
18. سيزا أحمد قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، مصر ، (د ط) ، 1984م ، ص62.
19. جيرار جنيت : خطاب الحكاية ، ص 60.
20. لطيف زيتوني : معجم مصطلحات نقد الرواية ، ص 19.
21. الثلاثية ، ص 12.
22. الثلاثية ، ص 17.
23. الثلاثية ، ص ص 30، 31.
24. الثلاثية ، ص380.
25. الثلاثية ، ص 528.
26. بوشوشة بن جمعة: اتجاهات الرواية في المغرب العربي ، المغاربية للطباعة و النشر و الإشهار، تونس، ط1، 1999م، ص 569.
27. حسان راشدي: الرواية العربية الجزائرية 1988، 2000، صيرورات الواقع و مسالك الكتابة الروائية ، مقاربة بنيوية تكوينية ، رسالة دكتوراه دولة في الأدب العربي الحديث جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2003/2002م، ص85.
28. جيرار جنيت: خطاب الحكاية، ص51.
29. لطيف زيتوني : معجم مصطلحات نقد الرواية ، ص 15.
30. حسن بحراوي : بنية الشكل الروائي، ص 132.
31. لطيف زيتوني : معجم مصطلحات نقد الرواية ، ص 17.
32. جيرار جنيت : خطاب الحكاية ، ص 79.
33. الثلاثية، ص 75.
34. الثلاثية ، ص 118.
35. الثلاثية ، ص ص 132 ، 133.
36. حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، ص 137.
37. الثلاثية ، ص 151.
38. الثلاثية ، ص ص 153، 154.
39. الثلاثية ، ص 537.
40. الثلاثية ، ص ص 726 ، 727.
41. لطيف زيتوني : معجم مصطلحات نقد الرواية ، ص ص 16 ،17.
42. الثلاثية ، ص 14.

43. الثلاثية ، ص 208.
44. الثلاثية ، ص ص 465، 466.
45. الثلاثية ، ص 506.
46. الثلاثية ، ص 571.
47. الثلاثية ، ص 573.
48. سمر روحي الفيصل: بناء الرواية العربية السورية (1980، 1990)"دراسة نقدية" منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ط1، 1995م، ص 175.